

ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- ٢٠ -

تأهبت ظمياء للكلام فاستوقفتها الحطتين لأنظر الأشرطة
السينمائية التي يعرضها الشقاء أمام خيالي . فهالني أن أشهد ألوف
الناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود ، ونجت في أذني
تلك الكلمة الباغية التي قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت
الأخبار بما بيني وبين ليلي من خلاف ، قال ذلك الزميل وهو
يلتهم حساء البقلة الحساء :

« كان رأي من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت في
اختيار زكي مبارك لمداداة ليلي المريضة في العراق وهي تعلم أنه
محجز عن مداواة ليلي المريضة في الزمالة »

أنا محجزة عن مداواة ليلي المريضة في الزمالة ؟
أنا ما محجزة ، وإنما رأيها لثيمة لا تحفظ الجليل فضننتُ
عليها بالطلب والدواء ، وأخذت أدرس ما صرت إليه في هوى ليلي .
فحب هذه المرأة هو أخطر ما عرفت في حياتي من ظلام وضلال
أحبك يا ليلي أحبك !

وإنما كان كذلك لأنه ابتداء بالمطف ، عطف الصحيح على
الليل ، والمطف يؤسّل جذور الحب ويهيئ القلب للقيام
المصروف

كانت ليلي تصح على يدي من يوم إلى يوم ، وكان حالي معها
حال الجنان الذي يتمهد إحدى الشجرات بالسقي والرعاية فتنبو
عواطفه بنموها من حيث لا يعرف ، ثم تصبغ الشجرة وهي
معبودة من دون البستان
أحبك يا ليلي أحبك

ورأت ليلي شفق فلم تقطن إليه ، ولعلها كانت تراه لو تأمن
ترفق الأطباء فمضت تناشلي نضال الصحيح للصحيح ، ولم تدر
ما نقل المشرط إلى دمي ، وآه ثم آه مما ينقل المشرط ، قالناس
لا يفهمون كيف يعيش الليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين
تكون جرثومة واحدة ينقلها المشرط إلى جسم الطبيب وهو صحيح
كافية لقتل الطبيب

الناس لا يفهمون هذه الظاهرة وهي عندهم من الفرائب
ولكن تعليلها سهل . وهي أول درس تلقينه بكلية الطب
في باريس

السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم ، فهو حين
يشعر بانتقال العدوى إليه . يفعل جسمه كله دفعة واحدة
فيصرعه المرض

وهذا يشبه تمام الشبه ما يقع في عالم الأخلاق ، فالرجل صاحب
الوجدان السليم تؤذيه الهفوة الصغيرة فيقضي سائر عمره في استغفار
وقد يقتله تأنيب الضمير ، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان ،
فالأول يمانى العلل المهلكات ثم لا يموت قبل أوان الموت ، والثاني
يُجرم نحو نفسه ونحو الإنسانية ثم يعيش وهو مستور الحال ، لأنه
يجعل خطر ما يصنع

ومن أجل هذه الماني عشت شقياً في حياتي ، فأنا تلميذ قديم
من تلاميذ النزالي ، وكل شيء يجوز عندي إلا إيذاء الناس ، وقد
يتفق في أحيان كثيرة أن أهجم على خصومي بعنف ، ولكنه
عنف مصطنع ، لأنني لا أحشو السدس بنير البارود ، فيثور من
حولهم الدخان ، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص
ويصنع خصومي غير ما أصنع ، لأنني غيٍّ وهم أذكاء !
هم يحشون السدسات بالرصاص ثم يقدفون ، وكما يبقى الرمي
على النبال ؟ ! أولئك أعدائي ، والمداداة الأثيمة تستبيح كل قبيح
ولكن ما ذنبي عند ليلي حتى تفضحني بين قومي وتضيع
مستقبلي في مداواة الملاح ؟

ما ذنبي عند ليلي التي هجرت في سبيلها وطني وأهلي ؟
ما ذنبي عند ليلي ؟ ما ذنبي عند عيونها السود وخدها الأسيل ؟
ما ذنبي عند ثناياها المذاب وصوتها الرخيم ؟
أحبك يا ليلي وأستعذب في هواك كل عذاب
— ظمياء ، ظمياء

— عيوني ، عيوني

— هاتي التهم الثقالة التي تفعلت بها ليلاي . انقلها بترفق
فأحب أن أموت في بغداد ، فقارها مبهجورة منسية ، كأنها
مقابر المحبين ، وليس فيها مسجد أستروح بأن يصلي علي فيه
يوم أموت ، فساجدها تعرف الجمال في القباب وتجهل الجمال
في المحارب

- أعرني أذنك يا دكتور
— أعرتك قلبي ، يا ظمياء
— أنت منهم عند ليلي بالشيوعية
— بالشيوعية ؟ وكيف سكنت عني إذا حكومة العراق ،
وبصرها أحد من بصر ليلي ولها عيون تنقل إليها كل شيء ؟
— حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية ، وأنت
منهم بالشيوعية الوجدانية ، وليلي تماقب على ذلك
— وأن شواهد هذا الاتهام الفظيع ؟
— ما ظلمتك ليلي ، وإنما ظلمت نفسك ، فأنت الذي تقول
أصباك ما خلف الستار وإنما خَلَفَ الستار أولو مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا أني بكل حسنهم مفتون
— ما قلت هذا الشعر يا ظمياء
— هو في ديوانك المطبوع
— هذا شعر دمه السفهاء
— وكيف سمحت بنشره في ديوانك ؟
— ما أذكر كيف سمحت ، فقد كنت عضواً في جمعية
أبوللون ، وأرادت الجمعية أن تصحح انتسابي إلى الشعراء فلفقت
باسم طائفة من الأشعار وأخرجتها في ديوان
— ولكن ليلي تقول إن في ترك ما يؤيد هذا المعنى
— وكيف ؟
— في بعض ما نشرت في جريدة البلاغ مقال تقول فيه
إن الأطلال تملأ روحك بالمعاني لأنها تميد إلى خيالك تاريخها
القديم يوم كانت ملاعب ترح فيها القلباء
— هذا أيضاً مدموس
— وكيف ؟
— كان لي بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبي ، هو الأستاذ
ابراهيم عبد القادر المازني ، وكان يؤذيه أن تخلو مقالتي من
المعاني الوجدانية ، فكان يضع اسمي على بعض ما يندع من صور
الوجدان
— أنت تسيء الدفاع عن نفسك يا دكتور
— دليني كيف أدافع عن نفسي ، يا ظمياء ؟
— أما تعرف كيف تدافع عن نفسك ؟ أنا ألفتك الدفاع عن
- نفسك . قل إنك تمسح بجميع الصور وتهم بجميع المعاني
— هاتي يدك أقبلها يا ظمياء
— أعجيبك كلامي ؟
— ما هذا كلاماً ، إن هو إلا سحر مبین ، فأنا حقاً أعشق
جميع الصور وأهم بجميع المعاني ؛ وظواهر الوجود هي عندي صور
شعرية تموج بألوان السحر والفتون . الدنيا يا ظمياء لوحة فنية
صاغها بديع الأرض والسموات ، ثنا فيها من حسن فهو صنع
فنان ، وما فيها من قبح فهو صنْعُ فنان ، فأنا أدرس الحسن
والمساوي بذوق واحد . وقد أتفلسف يا ظمياء فأزعم أن خلقت
الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم . وعلى أهل الدمامة
أن يشكروا خالقهم فقد سَوَّاهم بمنية ، ثم تلتف فأباحهم التغلب
في بقاع الأرض ، وجعل لهم في دولة القبح سلطاناً . فان لم يشكر
هؤلاء القباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم ، وسأصدق عليهم
بالمطف والحنان
— دكتور ، أنا أحبك !
— وأنا أبغضك يا ظمياء !
— أقول ليلي إنك أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية
في الحب ؟
— ما تهمني ليلي ، وإنما يهمني أن أحاسب خالق ليلي
— احترس يا دكتور ، فهذا كفران
— سأحاسب ربّي قبل أن يحاسبني ، فاقضيت شبابي في
دراسة الأدب والفلسفة إلا لأعرف كيف أنافسه الحساب ،
وسوف تنظرين
— كفرت ، يا دكتور ، كفرت
— الكفر الحق هو أجل صورة للإيمان الحق
— وكيف ؟
— ما تعرفين كيف وأنت وصيفة ليلي وخدينة الدكتور
مبارك ؟
— لست خدينتك
العفو العفو ! يا ظمياء
— تشمتني يا دكتور ؟
— إنما أداعبك يا ظمياء ، فأغفرني ذنبي

— يغفر الله لك

— وينفر الحب ؟

— أسأل ليلاك

— غصبة الله ولنة الحب على ليلاي !

— ظمياء !

— عيوني !

— تلك التهمة الأولى ، فأين التهمة الثانية ؟

— ليلي تهمة بما اتهمت به الضابط عبد الحسيب

— وكيف اتهمت ذلك المسكين الذي سارت أخبار شقائه

مسير الأمثال ؟

— اتهمته بخيانة المروبة

— وهي تهمة بخيانة المروبة وقد أذويت شبابي في خدمة

لغة القرآن ؟ ؟

— إن ليلي قرأت خطبتك في نادي الثننى عن المروبة

المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد

— وما الذي عابته ليلي على تلك الخطبة ؟

— العيب في ذلك أنكم في مصر لا تفرقون بين المروبة

وبين الإسلام

— هذا صحيح يا ظمياء

— وهذه جريمة عربية يا دكتور

— اسمي يا ظمياء ، ثم بلني ليلي ما أقول . المروبة يا طفلي

الغالية في حاجة إلى أستاذ قوية من الصداقة والمطف ، وأستاذ

المروبة لن تكون في الممالك الأوربية ، وإنما ننشدها في الممالك

الإسلامية ؛ والسياسي الحكيم هو الذي يتعب في خلق الأصدقاء ،

والإمبراطورية البريطانية لم تنفها جيوش البر والبحر والهواء عن

التفكير في خلق الأصدقاء . والإسلام قوة يتودد إليها هتلر

وموسوليني ، وتشق روما ولندن وباريس وبرلين في التعرف إلى

مدارج هوا ، وليس في بلاد الله قوة سياسية إلا وهي تحسب ألف

حساب لغضب المصحف فما ذنبي عند ليلي إذا أعلنت إسلامي ؟

ما ذنبي عند ليلي وأنا أخلق لقوى وقومها جيوشاً من المواطنين

والقلوب ؟

— ولكن الإسلام غير المروبة

— تلك يا ظمياء دسيمة استعماريه ، هي دسيمة حيكت شبابكم

لتفويض الإمبراطورية العثمانية . وقد تقوضت لأن الأتراك عجزت

حياتهم عن قرص خيوط تلك السياسة ، فهم اليوم أمة من الأمم ،

وكانوا بفضل الإسلام سادة المشرقين

— إحترس يا دكتور فهذه سياسة ، والسياسة محرمة على

الموظف

أعترف أنني موظف في حكومة العراق ، ولكن لاخوف .

فأنا أتهيب الشر في كل أرض ، إلا في العراق ؛ وأعتقد أن حكومة

العراق لا تصدر حرية الرأي إلا إذا صدرت عن المنافقين ، وقد

حافى الله من النفاق . وقد عجب ناس من أن تسكت عنى حكومة

العراق على كثرة ما قلبت من وجوه الآراء في الصحف والمجلات .

فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون ، والله من

وراء الدساسين محيط ، وسوف يعلمون

— إن العراق يثق بك ويمطف عليك يا دكتور

— وفي حاية تلك الثقة وذلك العطف أقول : إن أوروبا

الليثمة خلقت فسكرة المروبة لتقسم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين ،

وقد أحسست هذا المعنى حين بدأت أتلم اللغة الفارسية في باريس

سنة ١٩٢٧ فقد رأيت ممجاً فارسياً فرنسياً نشر منذ أكثر من

أربعين سنة وفي مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين

العرب والفرس ؛ وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هي السبب في

ثورة الأتراك والبرانيين على الحروف العربية

— أخطأ الأتراك وسيخطئ البرانيون

— وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ يا ظمياء ؟ لقد تجشمت مشيخة

الأزهر ما تجشمت وأنفقت ما أنفقت ، لترسل بمئة من العلماء

إلى الهند ، فهل فكرت هذه المشيخة في إرسال بمئة إلى تركيا أو

إيران ؟ هل فكرت مشيخة الأزهر في إرسال رجل أو رجلين

لتذكير الفرس بماضيهم في خدمة اللغة العربية ؟ هل فكرت في

إرسال وفد إلى النازي مصطفى كمال يذكره بأن الحق على العرب

الذين خذلوا تركيا في الحرب لا يصح أن ينسبه فضل العرب الأبرار

الذين نقلوا إلى تركيا بذور الإيمان بالله والرسول ؟

التاريخ في سيرة أبطاله

ابراهيم لنكولن

هجرة الامم الى عالم الحرية
للاستاذ محمود الخفيف— يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في سيرة
الأعلى من سيرة هذا العصاة العظيم

— ١٤ —

وتمت حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه ؛ ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد كارترايت ذلك الرجل الذي طعمته في دينه قبل ذلك بمشرين عاماً وهو ينافسه في الوصول إلى مقعد في مجلس الولاية ؛ وكانت هذه التهمة أيضاً تهمة القتل ؛ ولشد ما تأثر كارترايت وهو اليوم شيخ كبير حينما شاهد حرارة دفاع خصمه لنكولن عن حفيده الذي مالبث أن برئت ساحته ...

وأى شيء لعمري أجمل من هذا ؟ ألا إنه الخلق العظيم يهيج جماله النفوس ويملك طيبة الأفئدة، إن للناس فيه لقدوة أي قدوة، وإن لهم في صاحبه لأسوة لن يتسنى لهم مثلها إلا في الأفعال القليلين الذين ظهروا في هذا الوجود برهاناً على أنه نعمة من صلة بين هذه الأرض وبين السماء !

وندير الحديث بمد إلى السياسة فنذكر أن المؤتمر الذي انعقد من الجمهوريين في سبرنجفيلد عام ١٨٥٨ لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ قد اجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن، ولقد فعلوا ذلك في غبطة وفي حماسة شديديتين

وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديمقراطية في الانتخاب لمجلس الشيوخ ؛ فيلتقي بذلك الحصان ويكون بينهما هذه المرة جلاذ دونه كل ما سلف من جلاذ ؛ وينتهي الصراع بينهما فإذا دوجلاس يرى نفسه وقد ابتعد عن الهدف بقدر ما اقترب منه ابن الأحرار، ثم إذا هو يقطن إلى طمعة سوف تحول بينه وبين غايته المرجوة فلا يظفر بها أبداً ...

هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هبوا سينتات الحاضر لحسنات الماضي ؟

هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم في الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قت بهذا الواجب وحدي فأنتمت وزيرين في العراق ، وفكرت في الهجرة إلى إيران لأصلح ذات اليمين بين العرب والفرس . لكن كيف وأما رجل يرهقه جدول الدروس ونهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفي إيراني ودعاني الأستاذ ابراهيم حلمي للتسليم عليه ، فلم أستطع غخطبته بنير الفرنسية ، مع أنه نشأ في وطن كان بعض أهله لا يعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفي جريدة تصدر بلتتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا المهد لكنت اللغة الثانية عربية لا فرنسية

— يظهر أنك مؤمن يا دكتور

— أنا ملحد يا ظمياء ، فإيسرني أبداً أن أحتر نفسي في زمرة المسلمين المنافقين الذين يفكرون في إصلاح الوثنية الهندية ويفعلون عن هداية التأثيرين على الاسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع في تاج الاسلام

— أنت مؤمن يا دكتور

— أنا كافر يا ظمياء

— أعوذ بالله !

— وأنا أعوذ بالشیطان !

— تموز بالشیطان ؟ يظهر أنك ملحد حقاً وصداقاً

— اسمي يا ظمياء ، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق ،

فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين ، ولو كشف كل

انسان عن سريره كما كشف الشيطان عن سريره لأصبحنا جميعاً

من الملائكة لا من الشياطين

— أنت إذا تميد الشيطان ؟

— أنا أعبد الله وأحب الشيطان

— قف عند هذا الحد يا دكتور

— سمعت وأطعت

زكي مبارك

« للحديث شجون »